إشكالية الهوية في رواية ((الانطباع الأخير لمالك حداد))

أ . نبيلة زويش*

مقدمة :

انصرف كثير من النقاد والباحثين في دراساتهم عن التعريف بصاحب النص ، انطلاقا من مفاهيم نقدية جديدة ، رأت ضرورة انفصال النص عن صاحبه ، فلم يعد يهم من قال ولا متى قال ولا لماذا قال النص ما قاله ، وتم التركيز على كيفية القول باعتبارها مكمن أدبية النص . لكن يبدو لي أن نصوصا بعينها ودون سواها تثير السؤال عن صاحبها ، ومن يكون ، وتحيلك بشكل صارخ عليه وعلى مبادئه فيكون الفصل بينهما بترا للمعنى وسدا أمام الولوج إلى عالم الحكاية وهو حال «الانطباع الأخير» فماذا عن مالك حداد؟

ولد مالك حداد عام 1927 من عائلة ميسورة ، مكنت أبناءها من التربية والتعليم في عهد الاستعمار ، الأمر الذي لم يكن في متناول كل أبناء الجزائر . نشأ في محيط مرجعيته الانتماء إلى الجزائر ، ومن ثوابته الإسلام . ترك مدارج الدراسة لتلبية نداء الوطن والتحق برفاق الكفاح منضويا تحت لواء جبهة التحرير الوطني ، أحب الجزائر كما لم يعرف هو نفسه مثله ، وفيما يقول : «في بلدي سهول وسهول ، سهول فسيحة كجملة بلا فاصلة ، سهول من غير قرى ، ثمة المسافة ذات الأبعاد الشاسعة التي لا يوقفها شيء . هذا المستطيل الكبير الموجود هناك بين لا متناهيين هو الجزائر» .

ويعد مالك حداد من الكتاب الأوائل ، الذين امتازت أعمالهم بالالتزام الثوري ، آمن بصدق قضية الجزائر وقوة شعبها ، ولأجل أن يكون اللسان الناطق بحقها كلفته قيادة الثورة ، بمهمات ثقافية وإعلامية في بلدان عديدة في أوربا والبلاد العربية والعالم مثل رحلته في عام 1961 إلى القاهرة ودمشق .

ومن أشهر أعماله الشعرية «الشقاء في خطر» و«اسمعني وأناديك» وكانت أشهر رواياته «الانطباع الأخير» و«سأهبك غزالة» و«رصيف الأزهار لا يجيب» . تبدي قصائده إدراكه ارتباط «الهوية» بمعنى الوطن والوطنية وفي ذلك يقول :

* كلية الأدب العربي ، جامعة مولود معمري ، بتيزي وزو .

« . . . عندنا كلمة وطن لها طعم الغضب

يداك قد داعبت قلب الزيانيين

ذراع الشقور كانت بداية الملحمة

آنذاك تراءى لي جدي حاملا اسم المقراني »(1) .

ولعل الجملة التي قالها ذات مرة ، تعبر عن شعوره بالمرارة والاستياء مما خلفه هذا الاستعمار في تكوين شخصيته ومن ذلك استعماله للغة الفرنسية « اللغة الفرنسية هي منفاي » وتثير هذه الجملة الإشكالية التي طرحت حول الأدب الذي كتبه الجزائريون باللغة الفرنسية ، وسؤال هوية هذا الأدب . وهي الظاهرة التي لم تخص الجزائر وحدها ، حيث طرحت في العديد من المستعمرات الفرنسية والأوربية .

ونشير إلى أننا لن نتوسع كثيرا في طرح هذه القضية ، ونكتفي بالإشارة إلى الاستفتاء الذي قامت به مجلة « الأخبار الأدبية »(2) الفرنسية سنة 1960 ، والذي شارك فيه العديد من الكتاب الجزائريين والمستوطنين ، والذين كان من بينهم مالك حداد ، الذي استفزه السؤال عمن يكون الكاتب الجزائري ، فقال : « . . . إن لنا أساليب في التفكير والإحساس وما إلى ذلك من تصرفات ، هي أشياء خاصة بنا ، فحتى لو عبرنا بالفرنسية فإننا ننقل حلمنا وغضبنا وشكوانا الصادرة من الأعماق قرونا وقرونا من تاريخنا »(3) وتوجه برد خاص في المقال نفسه للكاتب المستوطن روجي عوريل الذي يبدو أنه شبه الجزائر بالمعشوقة الجميلة التي يتواطأ العشاق الأذكياء على خيانتها ، فقال له : « إن الجزائر ليست عشيقتنا المشتركة ، إنها أمنا ، ولا يمكن ارتكاب « زنا المحارم » في أسرتنا »(4) ويخلص إلى أن هذا اللبس الذي أشار إليه الكاتب بشأن الكاتب الجزائري مجرد ظرف تاريخي ، طارئ أوجده الاستعمار الفرنسي للجزائر ، وهو زائل لا محالة(5) . وقد أكد مالك حداد موقفه هذا في عدة مناسبات من ذلك ما جاء في الكلمة التي ألقاها بدمشق في مايو 1961 ، حيث قال : « . . . إن على الكتاب الجزائريين الذين

(1) ينظر : مالك حداد ، « الشقاء في خطر » ترجمة ملك أبيض العيسى ، المؤسسة العربية للدراسات ، ط2 ، بيروت ، ص 43 .

(2) Albert Memmi, Anthologie des écrivains maghrébins d'expression française, ed, Présence Africaine, Paris, 1965, 2eme édition, p 12

(3) Malek Hadad, Les Zéros tournent en rond, (essais édition, F _ Maspéro, Paris, 1961, p25 .

(4) المرجع نفسه ، ص 26 .

(5) ينظر المرجع نفسه ، 31 .

ينتمون إلى جيلي ، ولهم تكوين ثقافي كتكويني ، أن يتركوا أماكنهم اليوم أو غدا ، في ظرف قصير أو طويل ، ولكنه أكيد على أية حال للكتاب الجزائريين باللغة العربية ، وأن يقنعوا بترجمة أعمالهم إلى اللغة العربية في بلدهم . إننا كتاب جزائريون منفيون في اللغة الفرنسية »(1) .

لعل هذه المواقف الكثيرة ، التي وإن خالفها بعض الكتاب (كمحمد ديب) تدل على قناعة مالك حداد بهويته الجزائرية .

مفهوم الهوية :

إن اسم الهوية ليس غريبا في أصله ، فلا وجود للكلمة في معجم لسان العرب المحيط لابن منظور ، وإنما اضطر إليه بعض المترجمين ، فاشتق هذا الاسم من حرف الرباط ، أي الذي يدل عند العرب على ارتباط المحمول بالموضوع في جوهره ، وهو حرف هو في قولهم : زيد هو إنسان . . .(2) .

وللهوية عند القدماء عدة معان وهي التشخيص ، والشخص نفسه ، والوجود الخارجي قالوا : ما به الشيء هو باعتبار تحققه يسمى حقيقة وذاتا وباعتبار تشخيصه يسمى هوية وإذا أخذ أعم من هذا الاعتبار يسمى ماهية »(3) .

وقال الفارابي : هوية الشيء وعينيته ، وتشخصه وخصوصيته ووجوده المنفرد له الذي لا يقع فيه اشتراك . وعندما انتشر استعمال الكلمة صار تعريفها في قاموس « المنجد » باللغة العربية ، معناها « حقيقة الشيء أو الشخص ، المطلقة ، المشتملة على صفاته الجوهرية »(4) وأما اللفظ الذي يقابل الكلمة في الفرنسية فهو (identité) وقد اشتق من الكلمة اللاتينية (Edem) « التي تقال عن الأشياء أو الكائنات المتشابهة أو المتماثلة تماثلا تاما ، مع الاحتفاظ في ذات الوقت بتمايز بعضها عن بعض »(5) .

أما في قاموس « لاروس » فتعني : « مجموع الظروف ، أو الحيثيات التي تجعل من الشخص شخصا مميزا ، أو محددا » وذهب معجم « روبير » للمعنى نفسه الذي أورده « لاروس » : « ما يسمح بالتعرف على شخص بين جميع

(1) Malek Hadad, La liberté et drame de l'expression chez les écrivains algériens, ministère de la culture et de l'orientation nationale, Damas, juin 1961, p 15

(2) المعجم الفلسفي بالألفاظ العربية والفرنسية والانجليزية واللاتنية ، د . جميل صليبا ، دار الكتاب اللبناني ، سنة 1979 ، ص 528 .

(3) المرجع نفسه ، ص 529 .

(4) المرجع نفسه ، ص 531 .

(5) Petit Robert, dictionnaire alphabétique et analogique de la langue française, ed 1984, 1984, p 340 .

الأشخاص الآخرين» . ويزيد على ذلك بأن الهوية ما يرتبط بالحالة المدنية والصفات المميزة للشخص[1] .

واستنادا لمختف التعريفات التي وردت في المعاجم السابقة الذكر ، تداول الناس الكلمة ووظفت بمعاني ودلالات متقاربة ، لكن المجال ، الذي وظفت فيه واستعملت بشكل مكثف ، كان علم النفس ، ويرجع العلماء ارتباطها بهذا المجال إلى الفيلسوف الإنجليزي «جون لوك» ومن التعريفات التي تنسب إليه : «إن «الذات» أو «الهو» هو ذلك الشيء المفكر ، الواعي . . . الحساس نحو المتع والألم أو الوعي بها . . . وهو ما يجعل من وعي ذلك الشيء الواعي» يلتقي مع ذاته وليس مع غير ذاته» وصار تعريف الهوية في معجم التحليل النفسي : بأنها «حقيقة الشيء من حيث تميزه عن غيره وتسمى أيضا وحدة الذات»[2] وهكذا اتسع مفهوم الهوية وارتبط بشكل خاص بالإنسان وسمي المصطلح بمسميات أخرى مثل : «الكينونة ، الذات الإنية ، الشخصية» وشكل هذا المفهوم مجالا واسعا وحقل دراسات اجتماعية وانتربولوجية ونفسية .

وتجاوزت إشكالية «الهوية» الأشخاص إلى الأوطان ، وكان ذلك مرتبطا ، خاصة بالاستعمار ، شعوب تطمس هويات شعوب ، وشعوب تدافع عن هويتها ، ومن ثم طرحت القضية بحدة في الوطن العربي ، فارتبطت الهوية في مصر بمقولة : «أنا مصري ، عربي ، إفريقي ، مسلم» وكانت في لبنان تعني على حد تعبير إلياس خوري ـ «التمايز بوصفه رؤية وطريقة كمجموعة من القيم التي تعكس خصوصية معينة ، وهذه الخصوصية ليست مطلقة بطبيعة الحال ، وإنما فيها التركيبة الإبداعية التي تعبر عن تقاطع بين الهوية والوطن»[3] ويضيف مؤكدا على العلاقة الوطيدة بين الهوية والوطن : «أنا لا أستطيع أن أفهم هوية بلا وطن ولا وطنا بدون هوية»[4] ونخلص من هذه العلاقة إلى الانتقال من هوية الفرد إلى هوية الجماعة ، وجميع العناصر التي تحدد الهوية الفردية تنطبق على الجماعية .

أما إذا عدنا إلى الهوية الجزائرية التي طرحت كقضية شعب عانى ويلات الاستعمار ، وتجلت على عدة مستويات ، سياسية واجتماعية وثقافية وخاصة أدبية ، فإننا نتبين أن فرنسا كانت الطرف الوحيد الذي أنكر هوية الشعب

(1) Petit Larousse en couleur, ed 1984, p 420 .

(2) عبد المجيد سالمي ـ نور الدين خالد ـ شريف بدوي ، معجم مصطلحات علم النفس ، دار الكتاب القاهرة ، دار الكتاب اللبناني ، 1971 ، ص 529 .

(3) ميخائيل عيد ، سؤال الهوية ، اتحاد الكتاب العرب ، ص 24 .

(4) المرجع نفسه ، ص 28 .

الجزائري ، وسعى لطمس شخصيته بالإدعاء أن هذا الشعب مشكل من أعراق مختلفة وقبائل متفرقة ، وصرح بذلك الجينرال ديغول نفسه : « إنها لم تكن ذات يوم دولة ولا أمة وإنما هي مجرد خليط مزركش وعشائر متطاحنة »(1) .

ولكن ، إن كانت تلك آراء المستعمر ، فإن الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية ، وإن كان في أعماقه الأكثر طرحا ودعما للهوية الجزائرية ، وما كانت اللغة التي كتب بها إلا غلافا خارجيا . لقد كان اللسان الناطق بلغة هذا المستعمر ، الصارخ في وجهه : « لست منك ولست مني »

وكان مالك حداد في رواية« الانطباع الأخير » خير نموذج نقل حيرة وانشغال وتساؤلات المثقف الجزائري من جهة ، والأسرة الجزائرية ، المعاشرة للمستوطنين ، وأثر الاحتكاك بهم من جهة أخرى .

لقد طرح مالك حداد الحيرة التي وقع فيها الجزائري بعد أن طرحت عليه مسألة إمكانية حصول بعض الجزائريين على صفة« المواطنة الفرنسية »(la citoyenneté française) بعد الإصلاحات الاستعمارية التي تجلت في قوانين 04 فبراير ، وهي المسألة التي تخدش جرح الهوية وتظهر مساعي فرنسا لطمس شخصية وهوية الشعب الجزائري(2) . فهل كان الجواب عن السؤال : كيف يمكن للجزائري أن يصبح فرنسيا؟ مضمنا في هذه الرواية على لسان بطلها سعيد : « لا أدري إن كنت وطنيا . ما أعرفه ، وأعرفه جيدا أني جزائري ، بل إني أخاف أن أكون قد أصبحت شيئا آخر »(3) ليصل في مستوى آخر من الحكاية للجواب الحاسم : « آن الأوان ليلتحق كل واحد بطائفته »(4) كما يبدو في مستويات أخرى إشارة الحكاية لقضية الزواج المختلط ونتائجه على الهوية الفردية والتشكيلية الجماعية : نتبين موقفه في قوله : « يوجد في كل زواج نسميه ببشاعة الزواج المختلط شيء مفارق أو لا معنى . . . هؤلاء الذين يلينون أمام هذه الدولانية السهلة لا ينكرون . . . بأن هذه الامتزاجات تخفي جرائم في نهاية الأمر . لهذا استقر ايدير في فرنسا بعد إتمام دراسته . إن حلا سهلا يؤدي دائما إلى حل آخر أسهل . أبوه ، رجل قديس مات من فرط الكآبة والخجل » . .(5) .

---

(1) ينظر : مولود قاسم نايت قاسم ، أصالية أم انفصالية ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر 1991 ، ج 2 ، ص 30 .

(2) Mostapha Lacheraf, Breve contributions a un débat sur le roman maghrébin, in Erit didatique, sur la culture, l'histoire et la société, ENAP Alger 1988, p37.

(3) مالك حداد ، الانطباع الأخير ، ترجمة السعيد بوطاجين ، منشورات الاختلاف ، الجزائر ص 22 .

(4) الرواية ص 25

(5) الرواية ص 25 .

حكاية الحكاية :

تسرد الرواية قصة أسرة جزائرية قسنطينية في العهد الاستعماري . تتكون من أب وأم وثلاثة أبناء : بوزيد ليلى وسعيد . وهو البطل الذي يتتبع السارد مسار حياته ، وكيفية معايشته للثورة وأحداثها الدامية .

تقول الحكاية أن سعيدا ، المهندس المعماري الناجح ، المثقف ، الذي أحب جسور قسنطينة وشارك في بنائها ، وكانت مكمن فخره واعتزازه ، والذي كان من أصدقائه بعض المستوطنين الفرنسيين ، والذي أحبته لوسيا وفضلته عن الفرنسي ، والذي بادلها الحب ، جاءه خبر من قيادة جبهة التحرير يطلب منه تقديم المعلومات الهندسية التي تمكنهم من تهديم جسره الذي بناه هو ، والذي كان جسرا يمد قسنطينة بالحياة ، وتحول مع الاستعمار إلى جسر يعبر من خلاله عساكر العدو وأسلحتهم . ليزرعوا الموت والخراب .

كره سعيد الحرب لأنها السبب في تفجير جسره واشتد كرهه لها بعد أن أصابت الرصاصة الطائشة حبيبته ، حزن حزنا عميقا ، ورغم أنه يعلم أن الحرب غير عادلة ، ولا يحبها يلتحق بأخيه بوزيد في الجبل ليستشهد بقربه لأنه يحب الجزائر أكثر .

التعايش الاستقرار غياب سؤال الهوية :

تبدأ الرواية بلاحقة كبرى يرتد السارد من خلالها إلى طفولة سعيد ، ذاك الطفل الذي كان يعيش في سكينة وهدوء ، حيث تبدو طفولته عادية ، لا تختلف عن طفولة أي صبي في سنه ، وهي مجسدة لمعنى الهناء والاستقرار ، يقول السارد : « عندما كان سعيد صغيرا ، كان يحدث له أن يأخذ دراجته ويهجر المدينة . في البداية كان كل شيء على ما يرام ، قسنطينة منتصبة على صخرتها كنقطة على حرف ، الطرق نازلة نحو الساحل بسرعة مدوخة » . .(1) .

نلاحظ إذن ، أن دلالة الاستقرار والأمان ، التي أراد السارد إيصالها للقارئ قد شكلها من خلال زاويتين : الرجوع إلى طفولة البطل الآمنة ، كان يلعب ويبتعد عن المدينة دون أن يخاف أي خطر ، ومن خلال مدينة قسنطينة نفسها ، التي كانت منتصبة على صخرتها ، وكانت طرقها نازلة إلى السواحل . وفي هذا إحالة على الشخصية وبطاقتها الدلالية (طفل ، مطمئن ، دراجة ، يلعب ، يبتعد . . .) ، وعلى الفضاء وبطاقته الدلالية هو الآخر ، (فضاء محدد ، آمن . . .) .

(1) الرواية ص 34 .

لكن الملفت للانتباه ، أن هذه اللاحقة قد انبنت على سرد تابع جعل السارد من الفعل الماضي الناقص « كان » قرينة دالة عليه ، وفي ذلك إثارة وشحذ لذاكرة القارئ الذي يشده فعل « كان » إلى مخزون يربطه بفعل الحكي ، فبداية هذه الرواية تشبه المقدمات القصصية القديمة التي تبدأ عادة ب « كان يا مكان في قديم الزمان » وهو من جهة أخرى علامة على انفصال الحاضر عن الماضي ، الأمر الذي يؤكده السارد بقوله : « في البداية كان كل شيء على ما يرام »(1) .

فيخلص المتلقي إلى دلالة مفادها ، أن قسنطينة كانت مدينة آمنة وكان أهلها يعيشون في آمان وكان أطفالها يلعبون في سلام ، فيثبت لدى المتلقي اتصال الذات بالموضوع القيمي الواضح والجلي : الأمن والاستقرار ، ويحدث بعد ذلك تحول على مستوى هذه العلاقة فتنتقل إلى حالة انفصال تتبين ذلك مجددا بعد الجملة السابقة في قول السارد : « كان ذلك في البداية » ويضيف حتى يتأكد أن أمر ذلك الأمن كان في الماضي قوله : « فيما مضى كان السباخون هم الذين يسلكون هذا السبيل ويجيئون متأخرين لتزويد السوق ، فيما مضى . . . ، كان يستلزم أقل من سنة لينتصب حد بين الحاضر وهذا الني ، ما مضى الذي لا يعرف الأسلاك الشائكة في الطرقات ، حظر التجول والدبابات »(2) .

فيتأكد من خلال هذه المقطوعة انفصال الذات عن موضوعها القيمي وهو انفصال بين زمنين الماضي الحضر وهو الأمر الذي يشد القارئ عندما يتكرر على لسان السارد مقطع : « فيما مضى كان . . . فيما مضى . . . ، كان ما مضى . » . . حيث يشكل هذا السرد المكرر نغمة يتسرب من خلال تكرارها الحسرة على الماضي الذي ولى وتبدلت من بعده الأحوال . لكن الملفت للانتباه في هذه المقطوعة أن السارد يضيف جديدا طرأ ، نستشف من خلاله اتصال الذات بموضوع آخر : « ما مضى لا يعرف الأسلاك الشائكة وحظر التجول والدبابات » صارت المدينة غير آمنة ، ولم يعد فيها أمان واستبدل بالأسلاك الشائكة والدبابات ، إنه الخطر ، ناقوس حرب يسلب الناس حريتهم وأمنهم . فتصبح الذات في اتصال بموضوع الحرب . ورغم استمرار السرد على الوتيرة نفسها ، حيث لا ينقل الأحداث مباشرة ، ولا يركز السارد على الفعل في حد ذاته ليبين الحركة ، ويكتفي في الغالب بنقلها من خلال الانطباع الذي تخلفه كتحولات تطرأ على المسار الحكائي ، فإننا تتبين هذا النمو من خلال ما تضيف كل مقطوعة من

(1) الرواية ص ن .
(2) الرواية ص 35 .

مستوى آخر ، من ذلك مثلا : « بين عشية وضحاها ، بين عشية وضحاها سوف لن نذهب إلى السنما ليلا ، بين عشية وضحاها ، نشعر حين يغشى الليل بأن البادية تسيطر على الأمور »(1) .

إن هذه المقطوعة لا تضيف حدثا جديدا فقط ، والمتمثل في سيطرة البادية على الأمور بل تؤكد من ناحية أخرى النمو الزمني ، فالمقطوعة أقرب في زمنها من زمن السرد ، وفيها انتقال من الماضي (الطفولة) إلى سن آخر (سن الخروج إلى السنما ليلا) رغم أن السارد يوظف قرينة زمنية ترتبط بالسرعة الزمنية (بين عشية وضحاها) وفي هذا المستوى يطرح السؤال هل تبدلت فعلا الأحوال ، أحوال الناس والمدينة بين عشية وضحاها؟ هل كانت آمنة ساكنة فعلا؟ وما معنى أن البادية تسيطر على المدينة؟

يبدو أن اختيار السارد لنقل الأحداث بطريقة غير مباشرة ، من خلال انطباع هذه الأحداث وأثرها على حياة البطل كانت له غاية مقصودة ، نتبينها من خلال هذه المقطوعة التي تنقل تأمل البطل الوضعية ، والحالة التي كانت تعيشها البلاد ولكن من منظور آخر ، منظور الطرف الآخر ، يقول السارد على لسان سعيد : « أتساءل الزورق المترنح في المحيط يوما عن أية خاصية بينهما؟ ماذا يفعل العساكر؟ وماذا يفعل القارب المترنح في المحيط ، هذا المحيط الذي يتظاهر بتحمله ليهرب بعدها عندما يبلغ رفضه للحضور المستهجن »(2) .

إن هذا المقطع الذي ينقل ردة فعل سعيد عندما كان ينظر إلى العساكر السكارى عند خروجهم من الحانة ، والثمالة تلقي بخطواتهم يمينا وشمالا ، وما شكل على مستوى ذهن البطل صورة الزورق الذي تلعب به الأمواج وسط المحيط ، يساهم بشكل كبير في إزالة إبهام وغموض حالة الهدوء والسكينة التي كانت تعرفها المدينة . إن السارد من خلال هذه المقطوعة المشهدية الخافتة الحركة ينقل للقارئ بداية الفهم والوعي لدى البطل . وكأن طارئا طرأ أيقظ في داخل البطل أشياء كثيرة كانت من المسكوت عنه ، والذي يكبت حتى يضيق به الصدر إلى لحظة لا يحتمل ويلفظ خارجا كطعام لم تهضمه المعدة . لكن السؤال الذي يطرح في هذا المستوى من مسار الحكاية ، ما هي الخلفية السردية التي جعلت هذا البطل لا يشعر بالضجر ، والكره لهذا المستوطن في البداية؟ لقد عرض السارد القصة ووضع البطل في الإطار الذي يجعله يعيش حالة التماهي مع

(1) الرواية ص 11

(2) الرواية ص 18 .

هذا الطرف الآخر ، بدأت الأحداث من الطفولة ، وساعتها كان سعيد طفلا وكان المستعمر قد استوطن ، والمقاومة الجزائرية كانت عرفت خفوتا خاصة على مستوى المدن الكبرى حيث تعايش السكان الأصليون مع المستوطنين وجمعتهم علاقة جيدة ، وبطل الرواية كان من أسرة ميسورة الحال ، وأتم تعليمه ، مهندس معماري ، مثقف ، وصديق لبعض المستوطنين وحبيبته لوسيا . ورغم أن السارد لم يصرح بهذه المعطيات دفعة واحدة ، لكنها من الأخبار التي انتشرت عبر مسار الحكاية شيئا فشيئا ، إلى أن وصل للمرحلة التي قال فيها مجيبا صديقته لوسيا عندما واجهته بالحديث عن الهوية التي صارت بين طرفي النزاع ، فأجابها : « عميقة جدا ، أخاف أن يصعب ردمها الآن وقد سال الدم ، التمشيطات ، الاغتصابات ، التعذيبات ، الاغتيالات بالجملة ، السجن ، الاعتقالات التعسفية » . . .

لقد بلغ مسار الحكاية لحظة الوعي الكامل لدى البطل ، ويبدو أنه لم يكن وعيا بوجود هذا الطرف الآخر المعادي ، المستعمر فقط ، بل لقد أدرك أنه كاد ينسى هويته ، أخذته الحياة التي كان يحياها مع هؤلاء المستوطنين . لكنه وعى في الأخير أنه ليس منهم وأنه رغم مستواه ، ورغم ثقافته ، ورغم حبيبته كالآخرين . تتبين هذا في قوله : « خطأ! إني كالآخرين وزوارقي الصغيرة لا تضيف شيئا . . . إني كالآخرين ، إني مع الآخرين . أفهم خبزهم وبندقيتهم ، أتحدث عن أمي كما يتحدثون عن أمهم ، أقبل أبنائي كما يقبلون أبناءهم ، أخاف السلب كما يخافونه . إني كالآخرين كل شيء يربطني بهم ، كل شيء يجعلني مماثلا لهم ، اختارت الشجرة غابتها و العلامة الموسيقية سمفونيتها . الوحيدون الذين أستطيع أن أفهمهم فعلا هم أهلي »(1) .

إن تكرار البطل لمقطع « إني كالآخرين » ورغم كل الجمل التي جاء بها المتكلم ليوضح فيما هو كالآخرين ، إلا أنها تحيل القارئ في تكرارها على سؤال الهوية الذي يطرح على البطل ، كل الأشياء تربطه بالآخرين ولأنهم في عداء مع هؤلاء فهو مع أهله وضدهم .

الانتماء/ سؤال الهوية/ الثورة :

يبدو من خلال المسار الذي أخذته أحداث القصة ، التي انبنت على الانطباع الذي خلفته أحداث رئيسية معدودة ، في مسار البطل وتشكل شخصيته وامتلاء بياضها الدلالي ، أن السارد لم يسلك طريقا ملتويا لطرح سؤال الهوية ، فبينما كان

(1) الرواية ص 84 .

سعيد في حديث أو نقاش مع أصدقائه (الطبيب لوجندر ، روبير ، لوسيا) عاود طرح قضية الحرب التي سبق وأن عرف بموقف سعيد منها : « الحرب ولو كانت عادلة ، هي عادة صعبة الإتباع ، عادة تتبع إلى أن ينسجم الديكور لوحده مع اللعبة الجديدة للمثلين »(1) . كما ينقل السارد نفسه رد سعيد على الطبيب الذي لاحظ التغير الذي طرأ عليه ، قال سعيد بحركة مازحة : قلت لك يا طبيب بأن الحرب ليست جميلة ، التاريخ لا قلب له »(2) . أما الدلالة التي تحسم بشكل مباشر سؤال الهوية لدى البطل فتظهر من خلال هذا الحوار :

« قاطعه روبير : بشرفي أنت تتحدث كوطنّي .

ـ لا أدري إن كنت وطنيا ، ما أعرفه ، وأعرفه جيدا أني جزائري ، بل إنني أخاف إن أكون قد أصبحت شيئا آخر » . .(3) .

لقد بلغ في هذا المستوى وعي البطل بانتمائه إلى الجزائر ، وبهويته الحد الذي لم يبق فيه شك رغم أن القارئ قد يلفت انتباهه بداية رده « لا أدري إن كنت وطنيا » حيث يفتح باب التأويل واسعا ، ومن ثم يطرح السؤال ، ولماذا لا يعرف إن كان وطنيا؟

ويظهر السارد من خلال هذه الإجابة تردد البطل الذي يبدو أنه لم يطرح عليه ، من قبل ، سؤال الوطنية ، وأن معناها لم يشكل لديه في البداية إشكالية ، ومن ثم يبدو وكأنه لا يعرف ما معنى الوطنية ، وما الذي يجب فعله حتى يكون وطنيا ، إن حياته بين هؤلاء المستوطنين والامتيازات التي كانت لديه بينهم جعلته لا يدرك أنه إنما يصادق الأعداء . إن التغير الذي حدث بين عشية وضحاها بالنسبة لهذا البطل قد قلب الموازين ، لقد أدرك نتيجة للتحول الذي عرفته الحياة كاملة أن عليه أن يواجه أسئلة لم تكن تخطر على باله . لكن اختياره كان واضحا حتى وإن كانت أفكاره حول الحرب لا تتعلق بحرب الجزائر فقط ، فهو يرى أنها رغم قساوتها تكون أحيانا عادلة لأنها السبيل الوحيد الذي يرد الموازين إلى مكانها . ولهذا اعتمد السارد على كشف ما كان يفكر فيه هذا البطل وما كان يختلج بنفسه ، « لم يتجرأ سعيد على البوح بأنه يخشى أن يكون قد أصبح مضادا للفرنسيين »(4) لكن ما كان يعرفه سعيد دون شك ، أنه جزائري ، وأن التحولات التي طرأت جعلته يتذكر ما قاله ، وصرح به كامو في إحدى مقالاته ، ويوافقه فيما ذهب إليه ،

(1) الرواية ص 21 .
(2) الرواية ص 21
(3) الرواية ص 22 .
(4) الرواية ص 22 .

لأنه صار الأمر كذلك بالنسبة إليه ، ولهذا يقول كما قال كامو : « آن الآوان ليلتحق كل واحد بطائفته »(1) والالتحاق بطائفته يعني أنه مجبر على استرداد ما سلب منه ، ومن ثم تحدد انفصال الذات عن هويتها ولزم عليها السعي لتحقيق الاتصال ، استراد الوطن ، طرد المستعمر والتحرر واسترجاع الهوية باسترجاع الوطن .

أما إذا نظرنا إلى مسار الحكاية وأخذنا بعين الاعتبار أن هذه الذات (سعيد) قد انتقلت من ذات حالة إلى ذات فاعلة تسعى لتحقيق موضوع قيمي هو الهوية ، بدء من اللحظة التي قال فيها : « أخاف أن أكون قد أصبحت شيئا آخر »(2) فإننا نلاحظ أن عناصر الكفاءة التي كانت تبدو غير مكتملة لدى هذه الذات لتحقيق مشروعها قد جعلها الكاتب ، ومن خلال علاقة هذه الذات بالشخصيات الأخرى ، ومن الطرفين تكتمل شيئا فشيئا نحاول أن نتتبع اكتمالها وفقا لما ورد في النص .

أولا : لقد اكتملت قناعة (سعيد) الذات الحالة ، بأنه جزائري ، ومن خلال سكوته والتزامه الصمت أمام طلب لوجوندر للوسيا ، وبعد مراجعته لما اعترفت به الجارة « مليكة » ومن خلال تخلصه من تردده وحزنه على موت « لوسيا » التي تبين له أنه لم يحبها أبدا : « كان يفكر وهو سائر إن كان فعلا يحب « لوسيا » . إن كان لا يزال يحبها . لم يحب سعيد « لوسيا » أبدا ويتأكد موقف سعيد من لوسيا عندما يقول السارد : « لم يتجرأ سعيد على البوح بأنه يخشى أن يكون قد أصبح مضادا للفرنسيين »(3) .

إن الرواية بمسارها هذا ، كانت ستبدو عادية لا تختلف عن غيرها من الروايات التي سردت بطولات شعوب ثارت ضد الاستعمار ، لكن يبدو لي أن بذرة العبقرية في هذا العمل ، كانت في قصة الحب التي ضمنها الكاتب فيها ، لقد كانت بمثابة ملح الطعام ، وقد سبق وأشرنا في مقاطع سابقة إلى أن « لوسيا » الفرنسية قد فضلت سعيدا (العربي) عن ابن جلدتها ، الطبيب « لوجندر » الذي طلبها للزواج بحضور سعيد وبعض الأصدقاء ، نتبين ذلك في المقطع الآتي :

« في وقت التحلية قال الدكتور « لوجندر » بصدق لا جدال فيه ومن دون استهلال :

ـ لوسيا هل ترغبين في أن تكوني زوجة لي؟ . . .

ـ أترك يدي من فضلك . . .

(1) الرواية ص 42 .
(2) الرواية ص 22 .
(3) الرواية ص 18 .

ـ . . . هي لا تعرف الخداع» . .[1] .

لكن ما يشد انتباهنا في هذه العلاقة أنها مثلت للتنافس الذي يمكن أن يحدث بشكل طبيعي بين اثنين ، بل نلاحظ أن الكاتب ، وحتى يرفع من شأن حب سعيد ولوسيا لم يكتف برفض هذه الأخيرة للوجندر ، وجعل السارد يعلق على حب «لوجندر» للوسيا : «كان يحب لوسيا كما في روايات الأربعة فلس، غراميات لا سعر لها . ولو أحبته لوسيا لأصبحت الرواية بقيمة ثمانية فلس»[2] يتضح من هذه المقطوعة أن الكاتب كان يريد قصة حب متميزة ، قصة لا تشبه تلك القصص التي تشبه الواحدة منها الأخرى . كان يريدها قصة حب ترتقي إلى المستوى الإنساني ، الذي تتجاوز فيه الفروقات الاجتماعية ويبتعد فيه عن العنصرية .

ثانيا : كانت فرحة سعيد بأخته التي رفضت أن تكون مثل زوجها ، وبقائها وفية لوطنها علامة على اتضاح رغبته وإرادته القوية ، وعزمه على إسترداد ما ضاع منه ،» كان شريف ظلا ، ولكنه استقر في الرفاهية المخزية للعادة ، تعود إلى المقاطعات الفرنسية الثلاث ، لم يعرف المعاناة أبدا ، يقلقه التاريخ ، يناوئه كمغادرة ـ ثمة دائما كلمات . . . كلمة خائن مثلا»[3] .

يتضح من المقطوعة ، وعلاقة سعيد بأخته وبزوجها أنه يرفض خيانة وطنه ، خاصة عندما يضيف السارد : «كان سعيد مسرورا بأخته التي رفضت الذهاب ، في كل ذهاب هناك شيء من الهروب الذي يشبه التخلي عن الواجب ، وإذا رفضت ليلى الذهاب أبدت بشكل ما ارتباطها . . . بقيت وفية للساعات المضيئة المزروعة بالضحك» . .[4] .

نخلص من خلال المقاطع السابقة إلى استنتاج اكتمال رغبة الفعل وقدرة الفعل وبقية واجب الفعل الذي يثبت تحققه من خلال قول السارد : «كانت هناك ألف حجة لذلك» ليكتمل عنصر واجب الفعل عندما يأتي الأمر من قيادة جبهة التحرير لسعيد يطلب منه المساعدة لتخريب جسره الذي كان يشكل فيما مضى فخر واعتزاز سعيد نتبين ذلك من قول السارد : « . . . وجسر سعيد وجب تخريبه . أكيد ، ليس هو من سيقوم بالمهمة ، فقط طلبت منه إيضاحات تقنية ، طريقة من طرق التحسس ، الأماكن أكثر قابلية للعطب . هناك من الناس من يكفيهم تحطم كأس لمضايقتهم ، لتحريك شعورهم ، أما عندما يتعلق الأمر

(1) الرواية ص 34 .
(2) الرواية ص 106 .
(3) الرواية ص 70 .
(4) الرواية ص 76 .

بجسر .» . . ، ونتبين وجوب الفعل في قول مبعوث الجبهة : « يجب تخريبه . ثم أضاف المدعو علي وعيناه شبه مغمضتين : يجب تخريبه ، يجب» . .[1] إن هذا الطلب هو الذي حدد مسار البطل ، فالجسر الذي كان يفخر به يعتز به وافق سعيد على تخريبه من أجل غاية أسمى. لهذا قال السارد في مستوى آخر .» . . وجسر سعيد يقول : سأنتحر بإطلاق رصاصة على رأسي»[2] ليتكرر هذا الوجوب في مستوى آخر : « . . . يجب أن يزول الجيل الانتقالي . الجيل صنع الجسر . والجسر وجب أن يخرب . كان جيل سعيد جيل صانعي الجسور ، جسور الإرادة القوية . بيد أن الجسور وجب أن تخرب . لقد خربت»[3] .

ويتواصل تكرار خبر جسر سعيد في مستويات كثيرة من مسار الحكاية ، فتتشكل من خلاله الدلالة الكاملة التي أرادها المؤلف من وراء الجسر . ولعل المتتبع لكل المقاطع التي ورد فيها خبر الجسر يلاحظ التحولات التي طرأت عليه حيث انتقل من « عامل» شغل خانة « الموضوع» إلى عامل فاعل ، معارض ، فمساند فمرسل إليه .

أما عندما كان موضوعا تسعى الذات إلى تحقيقه فيمكن رده إلى القراءة التي ترى فيه اعتزاز سعيد ومكمن فخره ، لأنه ببنائه الجسر استطاع أن يحقق حلما كبيرا وأثبت وجوده كمهندس معماري تشهد قسنطينة له بأنه ساهم في فك عزلتها ، ولهذا نجد السارد يقول عنه : « . . . هذا الجسر كان السعادة الحقيقية الأولى لسعيد»[4] .

لكن هذا الموضوع ، وفي مستوى بلاغي رفيع من خطاب الرواية ، عندما يشخص السارد الجسر ، فيتحول إلى شخصية ، ثم يربطها بموضوع قيمي فيتحول إلى ذات فاعلة ، تسعى لاسترداد الشرف المسلوب ، نتبين هذا في المقطوعة الآتية : « ربع الجسر يديه على قدره اللامجدي . سيعرف التاريخ لماذا لم يعد جسرا . لقد سقط هو الآخر في ميدان الشرف»

لقد أصبح لهذا الجسر قدرا غير مجد ، وسيعرف التاريخ لماذا كان عليه أن يمضي فيه ، وكيف كان يسعى لتحقيق هدف نبيل ، وسقط في ميدان الشرف لأجله ، لقد استشهد الجسر في منظور هذا السارد ، مثله مثل بقية الشهداء .

(1) الرواية ص 29 .
(2) الرواية ص ن .
(3) الرواية ص 30 .
(4) الرواية ص 14 .

وأما عندما قال السارد : « لن تمر الدبابات على جسر سعيد ، وجسر سعيد يقول» . .(1) فيتحول الجسر إلى ذات معارضة لفرنسا ودباباتها .

ثم يكون بذلك ذات مساندة للجزائر بثورتها ، فتفجيره استشهاد لأجل هذا الوطن وإن كان سببا في انتعاش المدينة ونشاطها وحيويتها لأنه بمثابة معبر للحياة والخيرات ، وتحول على يد فرنسا لمعبر للدبابات الحاملة معها الموت ، فبتفجيره تنقطع الطريق أمام فرنسا ، وفي ذلك مساندة فعلية للثورة والوطن .

نستخلص من خلال هذه العلاقة التي جمعت سعيدا بجسره كيفية ترجيح الكاتب لرغبة سعيد الانتماء إلى وطنه واستعداده للتضحية بكل غال وعزيز لأجله . فالوطنية التي لم يكن يعرفها ، قد سلك الطريق المؤدي حتما إليها ، الاستعداد للتضحية ، فبعد ضياع الحبيبة (لوسيا) برصاصة طائشة ذهبت بحبه ، لم يتبق لسعيد سوى التضحية بجسده ولهذا يجمع السارد في المقطع الآتي بين « لوسيا و« الجسر » فيقول : « توفى الجسر كما توفيت لوسيا ، تعددت الأسباب والمنطق واحد» ويكتفي القارئ الدلالة التي يمكن أن يحصلها من قوله» والمنطق واحد» ليتبين هوية سعيد : جزائري وطني .

ورغم انجلاء الغموض الذي كان يعتم هوية سعيد في هذا المستوى من مسار الحكاية ، إلا أن الكاتب لا يسكت عن علاقات سعيد بالشخصيات أخرى ، فقد تأكدت هويته مرة أخرى ، بعد علاقته بأخته ليلى ، من خلال علاقته بأخيه بوزيد ، والرضا الذي أظهره في مواقف كثيرة ، على سلوك أخيه ومساندته له من ذلك : « تنفس سعيد ، ثمة رابطة أكثر من الأخوة تجمعه بأخيه بوزيد . . . بمثابة وعيه»(2) .

ويضيف السارد في مقطوعة أخرى ما يفهم منه أن سعيد لم يكن ليرى في أخيه شريرا حتى عندما أمر بتخريب الجسر ، جسر أخيه فيقول : « لم يكن بوزيد يحب الشر . جسر أخيه هو الذي خرب ، أتى على تخريبه ، جسر أخيه ، أخيه» . . .

ويأتي المؤلف إلى آخر علاقة تربط سعيدا بالآخر وتؤكد سعيه من أجل حماية هويته ، إنها علاقة سعيد بالجزائر ، التي تجلت في مستويات أولى من مسار الحكاية عندما قال سعيد : « ما أعرفه . وأعرفه جيدا أني جزائري» ثم عندما كرر سعيد مقولة ألبير كامو عندما اقتحمت القوات الفرنسية بيت أهله : « آن الأوان ليلتحق كل واحد بطائفته . ثم كانت بعد هذه المواقف العارضة أخبار الحدث الرئيسي ، خبر أول نوفمبر ، هذا التاريخ الذي أسقط بالنسبة للبطل/ الذات

(1) الرواية ص 30 .
(2) الرواية ص 43 .

الفاعلة ، جميع التحديدات الأحداث السابقة واللاحقة نتبين هذا في المقطوعة الآتية : « الساعة التي نعيدها إلى أول من نوفمبر ، هذا اليوم الذي غير توقيت فصول الشتاء إلى الأبد بالنسبة له ، وقد ابتدأت الهجرة لا بعد ولا قبل المسيح ولا محمد ، لا بعد ولا قبل كونفوشيوس أو سقراط . لا بعد ولا قبل (1830 و1954) . كان بالنسبة لسعيد يوم السنوات الجديدة وكل شيء يتحدد بالنسبة إليه ، ومن الآن فصاعدا ، بالعودة إلى أول نوفمبر من سنة ألف وتسعمائة وأربعة وخمسين »(1) .

نتبين من كل هذه المقاطع أن مسار الحكاية قد بلغ حد الحسم في قضية الهوية ، كل العلاقات السابقة كانت تؤسس لبلوغ هذه الذات موضوعها القيمي ، نتبين هذا في قول السارد : « ابتدأ الحلم في أحد صباحات نوفمبر ، حلم غال جدا . الحلم يوقظ ، ولكن الشمس تكسر الرؤى والأوهام لاحقا ، وتكون الحقيقة أكثر جمالا »(2) .

يبدو أن البطل قد تجاوز مستوى الحلم وبلغ الحقيقة التي تبدت له أكثر جمالا ، هذه الحقيقة التي أدرك كفاءة الوصول إليها عندما فكر في مستوى سابق من مسار الحكاية بأنه اختار الجزائر وهو يشير إليه السارد في قوله : لن يدخل سعيد الجزائر لركوب قطار كهربائي لشراء الجريدة ، لاحتضان والدته ، يدخل الجزائر ليفعل شيئا ، . . . كان سعيد وحيدا ولكنه ليس معزولا لأنه اختار الجزائر وكان هناك لا منتهي من كل الجهات ، لم يعد هناك فراغ »

لقد حازت هذه الذات على كل عناصر الكفاءة التي مكنتها من الاتصال بموضوعها القيمي « الهوية » وقد قامت كفاءة سعيد الذات الفاعلة على المواضيع الكيفية الآتية .

إرادة الفعل : شعر سعيد بأنه رغم علاقته بالمستوطنين ورغم حب لوسيا ليس من المستوطنين ، وأنه « كالآخرين » وأن وجود هذا الطرف لم يكن اختيارا ، بل كان مستهجنا ، ووعى أنه في حياته تلك كاد أن يفقد هويته ، ومن ثمة كان يريد أن يلتحق بطائفته بعد أن آن الآوان .

ـ وجوب الفعل : أدرك سعيد أن أشياء كثيرة تغيرت بين عشية وضحاها وأن هناك ألف حجة ومنطق التحاقه بإخوانه واحد كما أدرك أن من واجبه بحكم انتمائه ، وأخوته لبوزيد أن يساعد الثورة ويساعد في تخريب الجسر لأنه منهم وبرفضهم لهذا المستعمر كان يجب عليه هو الآخر أن يرفضهم .

(1) الرواية ص ص 100 ـ 101 .
(2) الرواية ص 103 .

ـ قدرة الفعل : كان سعيد يملك قـدرة الفعـل ، هـو مـن بنـى الجسـر وهـو الذي يعرف كيـف يخـرب ، وفي تخريبـه ووقوفـه أمـام عبـور دبابـات المسـتعمر ومنعها من العبور ، قدرة الفعل

ـ الأداء : بعد عودته من فرنسا ، بعد زيارته لأهل « لوسـيا » ، أدرك أن حـبهم لم يكن ولن يكون سببا في منعه من القيام بواجبـه ، لهـذا رجـع ليقـوم بشـيء . . . ، وبعـد التحاق سعيد بأخيه بوزيد وكان بذلك يجيب على السؤال الذي طرحه على نفسه « هـل أبقى غير مشارك دائما . . . ؟ ثم يحيل السارد القارئ من خلال مقاطع مختصـرة علـى استشهاد البطل عندما يقول : « ناقص الجزائري الفكرة . ناقص سعيد »(1) .

ما تجدر الإشارة إليه أن هذا الأداء كان إيجابيا لأن في التحـاق سـعيد بأخيـه اتصال وثبت كامل للهوية الجزائرية ولـيس في استشـهاده انفصـال عـن الهويـة بـل يمكن القول ، إن في استشهاده اتصال أبدي بالهوية الجزائرية ، سعيد جزائـري حـر ثائر ، شهيد الوطن .

قائمة المصادر والمراجع :

1ـ عبد المجيد سالمي ـ نور الدين خالد ـ شريف بدوي ، معجم مصطلحات علم النفس ، دار الكتاب القـاهرة ، دار الكتاب اللبناني ، 1971 .

2ـ مالك حداد ، « الشقاء في خطر » ترجمة ملك أبيض العيسى ، المؤسسة العربية للدراسات ، ط2 ، بيروت .

3ـ مالك حداد ، « الانطباع الأخير » ، ترجمة السعيد بوطاجين ، منشورات الاختلاف ، الجزائر .

4ـ المعجم الفلسفي بالألفاظ العربية والفرنسية والانجليزية واللاتينيـة ، د . جميـل صـليبا ، دار الكتـاب اللبنـاني ، سنة 1979 .

5ـ مولود قاسم نايت قاسم ، « أصالية أم انفصالية » ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر 1991 .

6ـ ميخائيل عيد ، « سؤال الهوية » ، اتحاد الكتاب العرب .

1 ـ Albert Memmi, Anthologie des écrivains maghrébins d'expression française, ed, Présence Africaine, Paris, 1965, 2eme édition .

2 ـ Malek Hadad, La liberté et drame de l'expression chez les écrivains algériens, ministère de la culture et de l'orientation nationale, Damas, juin 1961 .

3 ـ Malek Hadad, Les Zéros tournent en rond, (essais édition, F ـ Maspéro, Paris, 1961 .

4 ـ Mostapha Lacheraf, Breve contributions a un débat sur le roman maghrébin, in Erit didatique, sur la culture, l'histoire et la société, E N A P Alger 1988 .

5 ـ Petit Larousse en couleur, ed 1984 .

6 ـ Petit Robert, dictionnaire alphabétique et analogique de la langue française, ed 1984 .

(1) الرواية ص 133 .